المقدمة الأولى : حول فن الشعر

1- أستطيع أن أعرف الشعر - بالإضافة تعريفاته الكثيرة - بأنه : التعبير الفنى عن المشاعر والأحاسيس الممزوجة ببعض الأفكار فى لغة إيقاعية مصورة . ومن المؤكد أن الشعر موهبة سماوية ، يمنحها الله تعالى لبعض أفراد من البشر بمستويات مختلفة . فهناك المشاعر الجيد ، والمشاعر المتوسط ، والمشاعر المضعف . ثم إن هناك من يحاول أن يتمسح بهؤلاء الثلاثة ، وهو الناظم ، الذى يمكنه أن يرصف الألفاظ فى كلام موزون مقضى ، لكنه خال تماماً من دماء العاطفة ، والمقدرة على التأثير

2- وليس صحيحاً أبداً ما قاله شكسبير من أن "المشاعر والعاشق والمجنون يجمعهم خيال واحد" . فقد سوى فى هذا القول بين المشاعر ، الذى يدرك تماماً ما يفعل ، وبين كل من المجنون ، المفاقد العقل أساساً ، والعاشق الذى تستغرقه العاطفة فلا يدري كيف يتصرف .. أما المشاعر فإنه بعد أن ينصهر فى تجربته المشعورية ، التى تتفاعل فيها عوامل سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية - يظل يعمل بكل وعى على إقامة بناء متماسك من كلمات اللغّة ، وعلى أرض لم يتم البناء عليها من قبل . ومن هنا فإن الوعى فى الشعر أمر مؤكد ، وبدونه يصبح الشعر عبارة عن قصائد فارغة من المعنى ، خالية من المضمون . وقد حاول بعض الشعراء الإنجليز (كوليردج) أن يكتب بعض قصائده ، وهو مغيب العقل بفعل المخدرات ، ففشلت تجربته ، ولم تنجح قصائده !

3- وقد يكون من المفيد هنا الإشارة إلى علاقة الشعر بالفكر ، أو بالأحرى دور الفكر فى الارتقاء بمستوى الشعر . والواقع أن قصيدة خالية من الفكر ، أو حتى من لمسة بسيطة منه ، لن تكون أكثر من صرخة فرح ، أو نوبة بكاء ، أو انفجارية غضب ، أى مجرد انفعالات متناثرة يطلقها إنسان فى حالة غير طبيعية . أما الفكر فهو الذى يضبط عشوائيه الانفعالات ، ويجعلها تتماسك فى بناء فنى يجعل منه نمطاً إنسانياً يتشارك فيه مع الشعراء كل من يتلقى قصيدته ، ويكون قد مر بنفس التجربة التى مر بها . وقد قارن أحد النقاد بين شعراء اللفظ ، وشعراء الفكرة فقال ساخراً : إن شعراء الألفاظ وحدها يغارون .. تماماً كما تغار المزجاجات الفارغة من الزجاجات الممتلئة ! وقال تيتشه : إن المشاعر يحمل منتصراً أفكاره فى عربة الإيقاع ، لأن هذه الأفكار فى العادة لا تستطيع أن تمشى على قدميها . وقال بول فالبرى إن الشعراء الحقيقي هو الذى تنبع أفكاره من خلال المعاناة المرتبطة بفنّه الشعري . وأخيراً يقول كومبرسون : إن أبيات القصيدة عبارة عن زينات فى سجن ، توجد الأفكار داخلها فى خزائن !

4 - ما هو دور الشعر فى حياة الناس ؟ من الممكن جداً أن يعيش بعض الناس ، بل الكثير منهم بدون الشعر . فهو ليس خبزاً يومياً ، لكنه يمثل لطائف من الأفراد ، فى كل العصور والمجتمعات - قدراً من الإمتاع الذى يتمثل فى روح المشاركة . فأنت عندما تجلس فى رحلة قطار أو طائرة بجوار شخص ، من أى مكان فى العالم ، وتكون لديه بعض أفكارك وتصوراتك تحس بقدر كبير من الراحة ، بل من السعادة . ونفس الأمر يحدث عندما تقرأ أو تستمع إلى قصيدة شاعر من بلدك ، أو حتى من أى مكان فى العالم ، ثم تجده قد صور فيها

شعوراً مر بك ، أو إحساساً عانيته يوماً ، أو فكرة جميلة طافت برأسك ذات مرة - فإنك تنجذب إلى تلك القصيدة ، ويسعدك أن تكررها مراراً .

5 - لكن كما يكون بعض الشعر رقيقاً وناعماً ، تقرأه وأنت في سريرك قبل النوم ، يمكنه أيضاً أن يكون وحشياً وثورياً (وهذا ما يخيف منه السلطات) وقد استمعنا وشاهدنا أثناء ثورة 25 يناير 2011 بعض الهتافات (الشعرية) التي كانت تتردد في مختلف ميادين مصر ، وهي بإيقاع موزون ، وذات قافيه محكمة ، وكيف كانت المملايين ، وليس الآلاف ، ترددها بحماس وإصرار حتى تحققت مطالبهم بإسقاط النظام المصارم ، الذي استمر لمدة ثلاثين عاماً .. وفى اعتقادي أن الذين صاغوا تلك الهتافات هم شعراء على مستوى عال من الشعاعرية ، ومشكلة النقاد عندنا أنهم لا يلتفتون إليهم ، ويتركونهم يغيبون في زحمة الأحداث دون أن يسجلوا أسماءهم وأعمالهم في صفحة ناصعة من التاريخ الأدبي للوطن !

6 - ويؤدي بنا ذلك إلى تأكيد أن الشعر يعتبر أحد المداخل الهامة للوقوف على روح الأمة ، تك الروح التي لا يستطيع العلم ، ولما حتى المعلوماتية الحديثة ، أن تبلغ أعماقها ، فضلاً عن أن تحيط بأسرارها . صحيح أننا قد نتعرف على الشعوب الأخرى من خلال زيارتنا لها ، أو إقامتنا فيها ، أو قراءتنا عنها ، لكن هذه المعرفة تظل محصورة في الشكل وليس المضمون ، في الظاهر وليس الباطن ، في الجسد وليس الروح .

7- ولما كان الشعر هو فيض الأحاسيس والمشاعر ، الممتزجة طبعاً بالفكر ، فإنه هو الذى يدخل بنا عميقاً إلى تلك الأماكن البعيدة والخفية في روح الأمة . وهو يختلف عن كل من العلم والفلسفة ، حيث يقوم العلم بوصف الظواهر ، وهى غالباً حسية ، بموضوعية صارمة ، فيحدد لنا الخطوط والمفواصل ، ويبين الامتداد وارتفاع ، ويقيس المساحة والمسافات ، فى حين تنكب الفلسفة على الأفكار المجردة : تستخرجها وتحللها ، ثم تصنفها وتقارن بينها على أساس منهج منطقي قاطع ، وأدلة عقلية محددة .. بينما يظل الشعر ذاتياً ووجدانياً ، وإذا تضمن بعض الأفكار فلكى يطعم بها بناءه الفنى ، ويجعله أكثر وحدة وتماسكاً .

8 - لكن الشعر الذى وصلنا ، وما زالت تتراكم دواوينه لدينا ، ليس كله فيض الدروح . فالكثير منه بارد وماسخ ومتكلف . ومن هنا كان على نقاد الشعر أن يوضحوا للناس : الشعر الحقيقى من المزائف ، والأصيل من المقلد ، والعميق من السطحى . ولما شك أن بعض النقاد فعلوا ذلك ، لكن الكثير منهم تقاعسوا عنه ، وبددوا طاقاتهم فى أمور أخرى ، بل إن بعضهم اشتغل بالسياسة رغم حرصه على الاحتفاظ بلقب "ناقد" !

9 - وهنا حقيقة غائبة ، وهى أن الشاعر الجيد ليست كل قصائده بالضرورة جيدة . بل إن فيها الجيد والمتوسط والضعيف . كذلك فإن كل قصيدة على حدة تحتوى على جواهر وحصى .. أى على مستويات متفاوتة من النفس الشعرى ، وقد يما تحدث العرب عن بيت القصيد أو القصيدة ، وهو البيت الذى يتلأماً داخل القصيدة لما فيه من خصائص شعرية متفردة .. كذلك ينبغى ألا نخدعنا الشهرة الكاذبة أو المظاهر المخداعة . ولما أريد أن أذكر بالاسم شعراء حصلوا على شهرتهم الشعرية بوسائل أخرى غير شعرية ، كالعمل فى وسائل الإعلام ، أو محاولة المظهر الغريب كان يحمل أحدهم عصا ، أو يضع حول رقبتة كوفيه ملونة . وهناك من حصل على أعلى جائزة فى الشعر عن طريق التوسل للمحكمن بمرض فى القلب . ومن العجيب أن جميع المحكمن قد ماتوا ، وما زال هو حيا يرزق !

10 - إن أمثال هؤلاء جميعا سوف تكنسهم رياح التاريخ الأدبى ، وأنه لن يبقى من أشعارهم شء تذكره الأجيال اللاحقة ، تماما كما حدث نفس المصير لكثير من الشعراء العرب الذين نقرأ أسماءهم ومقتطفات من أشعارهم فى المصادر القديمة فلا نجد لها أثراً فى نفوسنا ، ولما تأثيرا فى أرواحنا ، بينما الشعراء الحقيقيون ما زالوا يعيشون معنا بقصائدهم ، وحتى بأبياتهم القليلة ، مؤثرة فنيا ، وجارية على ألسنتنا !

11 - وهكذا تصبح الأمور محسومة تماما . فإما أن يكون القول شعراً ، أو لا يكون .. فيصبح نظاما . والمنظم عبارة عن شعر موزون ، لكنه خال من العاطفة ، مجرد من الإحساس ، وغالبا ما يكون ساقطا من حيث الأفكار . وقد استخدمه بعض علمائنا القدامى لعمل منظومات والأفياى تساعد طلبة العلم على حفظ قواعده وتفريعاته ، مثل ألفية ابن مالك فى النحو ، وشاطبية ابن الجزرى فى المقرءات ، ومنظومة ابن سينا فى الطب .. وقد انتهى هذا العمل بانتهاء أسبابه وأهدافه . لكن مأساة الشعر ظلت متمثلة فى أن كثيرا من النظائمين قد حاولوا أن يكونوا شعراء ، ولم يكن الأمر سهلا على الإطلاق . فقد جاء فى الأمثال العربية القديمة : "ليست النائحة كالنكلى" !

12 - وأنا شخصياً أذهب إلى أن ثورة الشكل التي حدثت في الشعر العربي الحديث ، منتصف القرن العشرين ، كانت لها عوامل كثيرة ومتعددة ، ومن أهمها ما لحق بالشكل التقليدي الثابت للبحور الشعرية المنحصرة في ستة عشر بحراً ، والتي استغلها أسوأ استغلال أولئك الشعراء - النظاميون ، فملأوها بالكلمات الموزونة دون أن يصبوا فيها شيئاً من روح الشعر . وهكذا راحت المقصائد تطول وتطول ، والمقواضى الموحدة تتوالى وتتوالى .. وفى هذه الحال ، وجد (الشاعر - الناظم) نفسه مضطراً إلى أن يحشر كلمة من أجل الوزن ، وأن يأتى بكلمة غير مناسبة من أجل المقافية ، بينما ظل الشعراء الحقيقيون حريصين على تماسك البناء الشعري من خلال وضع الكلمة المناسبة تماماً في مكانها المناسب ، دون أى تعسف أو تكلف أو اضطراب !

13 - وكما كانت (الموشحات الأندلسية) ثورة في شكل القصيدة العربية القديمة ، أضافت إليها ولم تنتقص منها ، فإن القصيدة العربية الحديثة شهدت ميلاد (الشعر الحر) الذي كان نظاماً جديداً يقوم على ركيزتين :
 أ- جعل التفعيلة هي أساس المسطر الشعري .
 ب- عدم التقيد بقافية موحدة ، مع إمكانية تعددها وتنوعها .
 ومن الواضح أن الشعر الحر لم ينجح نظرياً فقط وإنما من خلال النماذج الجيدة التي قدمها شعراؤه الحقيقيون من أمثال بدر شاكر السياب ، وعبد الوهاب البياتي ، وصلاح عبد الصبور ، وأحمد عبد المعطى حجازي ، وأمل دنقل ، ومحمد إبراهيم أبو سنة ، وأمثالهم ، وكذلك من جاء بعدهم ، وسار على خطاهم ..

14 - وأخيراً ظهرت (قصيدة) النثر التي تخلت تماماً عن الوزن والقافية ، وأصبحت سطوراً متتالية ، تعتمد أساساً على الصور الشعرية ، وبلاغة الجملة العربية ، مفاجئة القارئ في أغلب الأحيان بصدامها مع معتقداته السياسية والاجتماعية ، وأحياناً الدينية .. وهذا ما جعل قراءتها محصورة حتى الآن في دوائر ضيقة ، ربما تكاد تكون مقصورة على شعرائها دون أن تتجاوزهم إلى قطاع عريض من القراء .

15 - إن التطورات التي لحقت بالشعر العربي قد حدثت أمثالها في الشعر الأجنبي : الفرنسي والإنجليزي والألماني والإيطالي والروسى .. الخ ، لذلك ينبغي ألا يغضب أنصار الشعر التقليدي العربي مما يجرى . فالمتطور في شكل الشعر يأتى في إطار اتجاه عالمي ، وهو في

نفس الوقت صيرورة تاريخية. وبدلاً من إهدار الوقت والمجهود في مقاومة التجديد والتحديث، يصبح من الحكمة اتساع مجال النظر إلى الجديد باعتباره هرمًا جديدًا يضاف إلى الأهرامات القديمة، وليس بديلاً عنها!

16 - وفي ختام هذه المقدمة، أستطيع أن أؤكد أن الشعر سوف يظل أحد فنون الأدب، يتوازي مع القصة والرواية والمسرحية، ويتداخل أحياناً معها، كما أنه لا يبتعد كثيراً عن الخواطر والمسيرة الذاتية، ولما شك أنه يحمل في ذاته عوامل بقائه واستمراره مع الإنسان، منذ نشأ حتى اليوم. وإذا كان هناك من لا يميل إليه، أو من يستبعده من حياته، فإن الكثير من الناس ما زالوا يجدون فيه نوعاً من المتعة الوجدانية التي تهدد أرواحهم المعذبة. وهناك مثل فرنسى جميل يقول: "إن المجتمع يحتاج إلى الشعراء، كما أن الليل يحتاج إلى المنجوم".

**